تراث بيروت المفجوع يتوالد جماليا

منازل وأزقة تسكن اللوحات لتنمو فيها ببطء البراعم

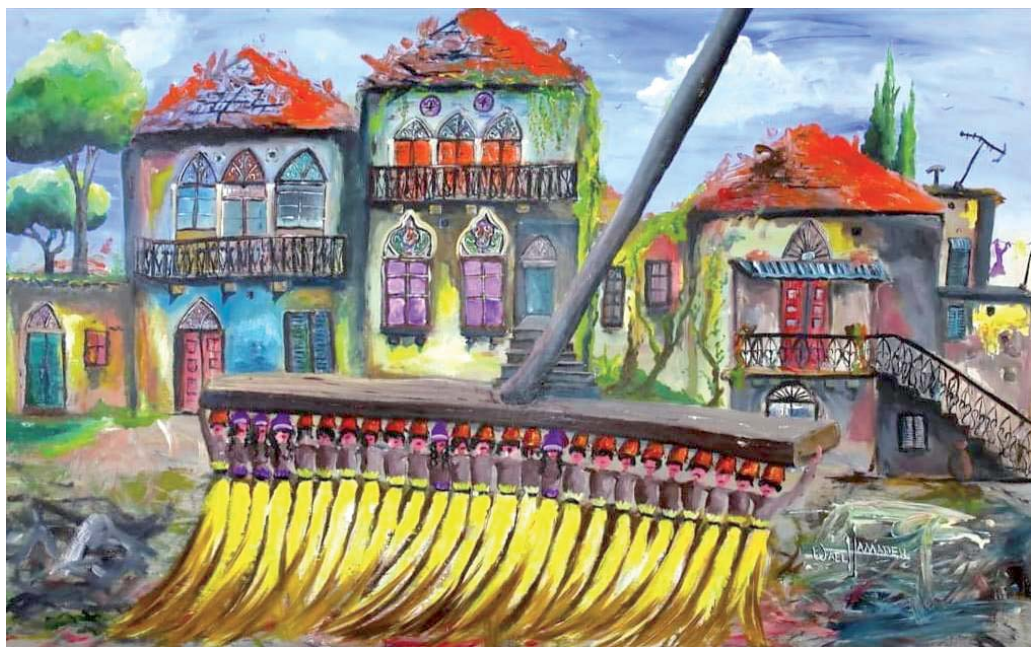

إزالة ما علق من ركام بألوان الحياة (لوحة لوائل حمادة)

الفن المعماري هو جزء لا يتجزأ من ذاكرة لبنان البصرية، كان ولا يزال ملهما للعديد من اللوحات الفنية التي جسّدته حاضرا لم يتحوّل بعد إلى تراث تهدّده الحروب وجشع الكثير من أسياد البلد الذين لا ينظرون إلى أي شيء، أو إلى أي إنسان آخر إلا من زاوية النفع المادي.

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

بيروت التراثية، هذه الحالة النرجسية المتعالية دوما في استمراريتها على كل ما ارتكب بحقها حتى الآن من قبل الجشعين تحت شعار الحداثة المدنية تلقت في 4 أغسطس، يوم الانفجار التاريخي الذي جاء "تتويجا" لكل أشكال الفساد والإجرام الذي لم تستطع ثورة 17 أكتوبر أن تهدّ منه شيئا، تلقت ضربة في كيانها وفي نرجسيتها المحببة.

غير أن حضورها لم ينطفئ إن في المساعي الصادقة في إعادة إعمارها، أو في خيال الفنانين التشكيليين اللبنانيين، حماة الذاكرة ومضيئي منابر العشق لمدينة لن تموت. لن تموت لا بنسختها التراثية ولا بنسختها الحداثية الوامضة كمنارة في عتمة ليل أغبر.

مشاهد مُستعادة

نذكر من هؤلاء الفنانين عمر أنسي ومصطفى فروخ، مرورا بمحمد قدورة وحسن جوني وجميل ملاعب، وصولا إلى الفنان أمين الباشا الذي توفي عن عمر يناهز الـ86 عاما.

لا ننسى نوافذه و"أباجوراته" الملونة التي تعشق الطيور زيارتها. نوافذ ملوّحة برطوبة بحر السواحل اللبنانية المطلة على ذاكرتها، قبل أن تطل على البحر بألوانها الحية والنابضة، وكأنها في أيامها الأولى من الوجود.

بعد انفجار بيروت بأكثر من 15 يوما بدأت الأعمال الفنية التي تتناول بيروت التراثية تتوالد في مراسم الفنانين اللبنانيين. اللافت في معظم هذه الأعمال عدم إمكان وصفها بأنها لوحات "فولكلورية" تصوّر مفاتن مدينة يودّ كل سائح أن يحصل على نسخة منها عند عودته إلى بلده من عطلته الصيفية.

أثار فنية أكثر ما يمكن القول عنها، وبرغم من ضجيج ألوانها في لوحات كثيرة، هي أعمال "مشقّقة"، أي أنها مُصابة في روحها بشقوق طفيفة شبيهة بالتي تُصيب الزجاج لتصدّعه دون أن تحطّمه.

تقف تلك اللوحات كمحامي دفاع لتشرعن اليوم أكثر من أي يوم مضى لوجود بيروت التراثية بعد أن دّمر العديد منها في لحظة واحدة (الساعة السادسة وخمس دقائق)، وبعد أن ارتفع منسوب التهديد بزوالها حده الأقصى.

كما هناك خاصية ثانية بالغة الأهمية، وهي أن معظم المشاهد المرسومة هي تقريبا "مُستعادة"، أي أننا قد نكون شاهدنا ما يشبهها من قبل، وربما كصور فوتوغرافية على البطاقات التذكارية. لكنها اليوم عارية من أدنى غنائية رخيصة.

> آثار فنية رغم ضجيج ألوانها، بدت مُصابة في روحها بشقوق طفيفة شبيهة بالتي تُصيب الزجاج لتصدّعه دون أن تحطّمه

مشاهد لبيوت ومساكن من بضعة طوابق فقط، جعلها العنف الذي تعرضت له ونجت منه، وإن بشكل جزئي، أكثر حقيقية، كما يصقل الألم روح الإنسان جاعلا منه أكثر إنسانية.

من تلك الأعمال نذكر ما قدّمته حديثا الفنانة دعد أبي صعب صوقي، وهو عمل يتنفّس حرارة كامنة في الألوان والمشاعر. وقد أعادت الفنانة نشر عمل فني لها يعود إلى سنة 2016 على صفحتها الفيسبوكية وهو يجسّد مشهدا بيروتيا تراثيا.

عمل فني لافت بدت فيه العاصمة معلقة بين السماء والأرض في بياض أثيري لم تثقله أي خاطرة، ربما إلا خاطرة الاندثار والتلاشي في البياض. عمل لافت أرفقته الفنانة بهذه الكلمات "بيروت.. يا بيروت تجسّد لوحة 'الحس المكاني' تجسّد الفن المعماري في بعض البيوت القديمة التي كانت ولا تزال شامخة في أزقة الأشرفية قبل الانفجار الكبير".

> مشاهد لبيوت ومساكن من بضعة طوابق فقط، جعلها العنف الذي تعرّضت له ونجت منه، وإن بشكل جزئي، أكثر حقيقية

ونذكر أيضا لوحة للفنان اللبناني وائل حمادة تظهر فيها بيوت تراثية أغنت بيروت ولبنان بجمالها الآثر، حيث كانت الشرفات تُشرف على زرقة السماء قبل أن تجتاحها الأبنية الرمادية الشاهقة. ويعلّق الفنان على لوحته قائلا "فإن كنت من بلاد الأرز فاجعل من روحك نورا وعنبرا، لأن قصورك باقية في كل ذرة غبار من ذهبك الأصفر".

قدّمت الفنانة ريما صعب أكثر من عمل فني، وهي المعروف عنها اهتمامها الكبير بالحفاظ على تراث بيروت، المدينة المشرقية. من تلك الأعمال نذكر عملا لها يجسّد نافذة خشبية تمدّدت الأسلاك الكهربائية وظلال أغصان الأشجار إليها، كما "حدث ذلك" لنوافذ قصر الأميرة النائمة في القصة الخرافية.

نشرت الفنانة هذه اللوحة على صفحتها الفيسبوكية، وأضافت إلى جانبها هذه الكلمات المؤثرة "إلى متى سنظل نرسم هذه الشبابيك الخشبية والنوافذ الزجاجية الصامتة؟ كم تتكلم عنا، عن حقيقتنا بعيدا عن كل رياء أو زيف! كم يُسمع لها صراخ أكثر قوة عندما يتّحد صراخها مع هؤلاء الذين لا يقوون على الصراخ!".

غبار الخراب

أما الفنان إيلي رزق الله الفنان "المهووس" برسم بيروت المدنيّة، مع اهتمام خاص بكل تفاصيلها، وخاصة تلك غير المرئية بالنسبة للكثيرين، فقدّم ثلاثة أعمال صوّر فيها دمار العاصمة بأجوائها التراثية والحداثية في آن واحد.

مشاهد "اتحادية" تصالحية ما بين الماضي والحاضر في لحظة عنيفة واحدة رفع فيها نبرة التظهير البصري إلى درجة الأيقنة. أطلق الفنان على اللوحات الثلاث هذه العناوين المبدئية: "بيروت/ معلم الفاجعة 1 متحف سرسق"، و"بيروت/ معلم الفاجعة 2 متحف سرسق" و"البيت المنكوب"، وهذه الأخيرة ربما هي اللوحة الأهم إلى الآن وقد يكون ذلك بسبب وجود شخص واحد مغشيّ الملامح صوّره الفنان وكأنه من غبار الخرائب.

يسير هذا الشخص أو يقف (أو الاثنان معا) يقف متفقدا ما حوله وكأنه ينظر إلى البيت ليس بوصفه بيتا هو بيته، بل بوصفه "ذاته". ذاته التي دخل إليها، وعلى جنحها المكسور/ المُثقل، تجوّل في أرجاء الذكرى كما تجوّل معه كل لبناني لم يفقد صلته بعد مع بيروت الحقيقية قبل أن تُنتكب بأسيادها منذ أكثر من ثلاثين عاما وصولا إلى زمن الانفجار وليس فقط إلى يومه.

فنان ليبي متوسطيّ الهوى لونا وشكلا

عبدالقادر بدر يشكل بالتجريد بحور أمنيات ورموز

سلاسة الجمع بين أصالة الزخرف العربي والتجريد

على صفحته الخاصة بموقع التواصل الاجتماعي فيسبوك يستعرض الفنان التشكيلي الليبي عبدالقادر بدر بين الفينة والأخرى لوحة من لوحاته المشبعة بالدلالات والرموز، لوحات تعجّ بألوان ترابية وأخرى حارقة وثالثة باردة، أو بعبارة أدق، فاترة، وفق تكوينات جمالية مترابطة ومتناسقة لتغدو وكأنها لوحة واحدة، وما هي كذلك مطلقا.

صابر بن عامر
صحافي تونسي

يعدّ الفنان التشكيلي الليبي عبدالقادر بدر واحدا من أنشط الفنانين التشكيليين ببلده وهو العصامي التكوين رسما، المتوسطيّ الهوى لونا وشكلا، إذ لا يكاد يمرّ يوم دون أن يوشح صفحته الخاصة على فيسبوك بلوحة من إنجازه.

لوحات يحضر فيها، اللون الأزرق في تدرّجه اللوني بين الأبيض الجيري والأصفر الترابي المخضّب بحمرة الحناء الأمازيغية والأزرق اللازوردي في إحالة إلى بحر صاخب الحركة لا يكاد يُرى على سطح اللوحة، في حين يُسمع لطم موجه صوتيا وتُرى أسماكه بصريا.

عن السرّ وراء ذاك الحضور الدائم للأسماك والمراكب في لوحاته، يقول الفنان الليبي مجيبا عن سؤال "العرب"، "الأسماك تعتبر من الرموز والدلالات في الفن الشعبي العربي والليبي خاصة، وتوجد بكثرة في السجاد وزخرفة النسيج في الوطن العربي، وفيها رمز الوجود المتجدد وعلامة من علامات الرزق الوفير والخصوبة، وهي في الغالب تعتبر تعويذة وفألا حسنا لحاملها".

ويُضيف "أعمالي متعلقة بلوحات البحر وبمشاهد البحر والقوارب ومعاناة الصيادين واهتمامهم بقواربهم وأعمال صيانتها، وذلك راجع ربما أيضا لاهتمامي الشخصي برياضة البحر والشراع وممارستي لها لفترة طويلة حتى يومنا هذا".

بعيدا عن البحر ورموزه تحضر العمارة بزخارفها الضاربة في أعماق التاريخ البربري والعربي على السواء. قلاع ومبان ومساجد وأقواس وأبواب، تظهر حنكة عبدالقادر بدر الفنية في الجمع بين أصالة الزخرف العربي والمدارس الفنية الغربية كالتجريدية والتكعيبية، لتبدو رسوماته تعبيرة جمالية مخصوصة له دون سواه.

رسومات قال عنها التشكيلي العراقي يوسف الناصر "يحاول بدر أحيانا تأكيد شكل ما، باب أو سياج، أو شجرة، لكن حساسية المتلقي المُتعاطفة تنسب ذلك دائما إلى زيادة في كرم الضيافة وجد طريقه إلى بناء اللوحة دون عسف أو إخلال بوحدة سطحها أو بنيتها".

ويُضيف "ها هنا بيوت، قباب، نوافذ، زخارف، أبواب، وسعف نخيل وأشياء أخرى، هيئات اقتصّت منها الحياة فشذبتها وعمل فيها مقص الزمن، هل تواردت هكذا في ذهن وعواطف الرسام مجتزأة ومبتورة؟ أم أنه رسمها أولا كاملة صريحة ثم تتبّع خطى زمانه محوا وإزالة وتقطيعا؟ هل كانت تلك الأشكال هنا قبل أن يصطحبنا الرسام معه في رحلته الشيّقة المُربكة؟".

هذه الأسئلة مجتمعة ربما تُجيبنا عنها لوحات عبدالقادر بدر التي أنجزها بضوء مغاربيّ حارق، سواء في وطنه الأم ليبيا أو من خلال زيارته الفنية المتكرّرة لتونس والمغرب، كأنه يجعل من فرشاته وألوانه وسيلة لتوثيق الموروث الثقافي المغاربي، والإضافة عليه دون تقليده، وهو الذي يرى أنه لا يمكن بأي شكل من الأشكال الحفاظ على القديم دون تجديده.

ويقول مؤكّدا "من خلال اهتمامي بالعمارة القديمة في ليبيا وشمال أفريقيا والمغرب العربي بهرتني العمارة الإسلامية وزخارفها المميزة كثيرا، ومدى قدرتها على التفرّد والإبداع وإظهار القيم الجمالية الأصيلة لتراثنا البصري والمعماري من قلاع ومبان ومساجد وأقواس وأبواب، علاوة على جمال طبيعتنا المتوسطية وسطوع ألوانها التي أثرت في مخيلتي، فاستلهمت منها الكثير من لوحاتي التجريدية والتكعيبية التي أنجزتها داخل ليبيا وتونس والمغرب".

هذا الاشتغال الجمالي لبدر على المعمار الإسلامي بأقواسه وقبابه، خاصة، يُحيلنا بشيء من رجع الصدى إلى تجربة التشكيلي التونسي الراحل نجيب بلخوجة، فهل تُراه تأثّر برسّام "المدن العائمة"، إن صحّ التوصيف؟

عبدالقادر بدر

> أعمالي التجريدية تعتمد على الأشكال أساسا مع استخدام الكثير من الوسائط المتمّمة للون والشكل

لا يُخفي بدر تأثّره ببلخوجة، الذي يراه مرجعا أساسيا في الأعمال التجريدية لكل فناني الوطن العربي، ورغم ذلك يقول "لكنني من أشدّ المتأثرين بفناني تونس الكبار أمثال الهادي التركي والحبيب بيدة ونجا المهداوي، حيث لم تكن عندنا في ليبيا الكثير من المجلات والكتب الخاصة بالفنون التشكيلية، فأنا باختصار فتحت عينيّ في المرسم الجامعي في نهاية الثمانينات على أعمال الفنانين المذكورين آنفا، كما تشرّفت بحضور بعض مشاركاتهم في ليبيا".

ويُؤكّد "تطوّرت ألواني وأعمالي التجريدية مع بداية سفري إلى تونس ومشاركتي في معظم ملتقياتها المعروفة، تحديدا منذ العام 2010 بمهرجان المحرس الدولي، واختلاطي هناك بالكثير من الفنانين من تونس وخارجها".

بين الكولاج والمسح والخدش تتشكّل في لوحات بدر أضواء وظلال تمنح منجزه الفني بُعدا حركيا يُخفي أكثر ممّا يُظهر، مُستنهضا همة المُشاهد لتأويل ما تُبصره عيناه فيُكمل عنه الحكاية ورموزها.

وعن كل ذلك يقول الرسام الليبي لـ"العرب"، "الحركة هي العنصر الذي يؤثّرُ في متابعي العمل الفني، وهي تشمل حركة الخطوط والألوان، وأعمالي التجريدية تعتمد على الأشكال في اللوحة مع استخدام الكثير من الوسائط المتمّمة للون والشكل كالكرتون المموّج وأوراق المجلات والمناديل الورقية، والمسح والخدش يأتيان من أجل إبراز التفاصيل وحركة السطح، وذلك ما يميّز سطوح العمل الفني ويجعلها واضحة للمُشاهد، حيث استعمال الكرتون المموّج والألوان والخامات المختلفة يحدث ظلالا وإضاءات قد لا يمكن تحقيقها في السطح الأملس، وهذه الحرية لا يحقّقها إلاّ فن التجريد، وهو الذي يجعل أي عمل فنيّ أكثر عمقا وحلما أيضا".

ويسترسل "في أعمالي الأسماك تعانق السماء وتطير، وهي تُضفي على العمل التشكيلي شحنة تعبيرية تعزّز وضعنا الحالي في ليبيا، فنحن شبه معزولين عن العالم الخارجي، لا نستطيع السفر إلاّ إلى بعض الدول المجاورة وسط تحدي مشاركتنا الفعلية إنسانيا وجماليا في هذا العالم الكبير".

هكذا هي لوحات عبدالقادر بدر التجريدية، استلهام من عمق تجربته المُسافرة بين الضوء المغاربيّ الوضّاء دائما، مجسّدة في رسوماته المعمارية الزخرفية الإسلامية المتداخلة لونا وشكلا، وبين الضوء المتوسطيّ الساطع والناصع أبدا، التي تصوغها بحرارة اللون والمشاعر، أيضا، أسماكه وقواربه الموزّعة على سطح "اللوحة/ البحر" الحالمة بوطن قادر على احتضان كل الليبيين وسط عالم أكثر إنسانية وجمالا.

السمك رمز للوجود المتجدد

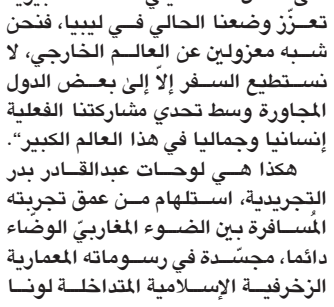

قوارب حلم مُسافرة إلى أوطان بديلة